

الدور العلمي والثقافي للزوايا في الفترة العثمانية

The Scientific and Cultural Role of Zawiya During the Ottoman Period

مدير المعهد الوطني لتكوين المتخصص للأسلاك الخاصة بإدارة الشؤون الدينية والأوقاف - تلمسان -

أ. بشير كاملي *

مدير المعهد الوطني لتكوين المتخصص للأسلاك الخاصة بإدارة الشؤون الدينية والأوقاف - تلمسان -

maahad_imama@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2024/09/02

تاريخ القبول: 2024/09/01

تاريخ الاستلام: 2024/08/18

ملخص:

لقد احتلت الزوايا منذ نشأتها مكانة هامة وأدت دورا بارزا في حياة المجتمع الجزائري، وما كثرتها وامتدادها وانتشارها في المدن والقرى والأرياف، في الجبال والتلال والصحاري الواسعة. وإقبال الناس عليها والتفافهم حول مشايخها، إلا دليل على مكانتها في المجتمع، فقد كانت الزوايا ولا زالت مراكز إشعاع روحي وتربوي وعلمي، وكانت صاحبة الفضل في المحافظة على المقومات الأساس للشخصية الجزائرية، إضافة إلى أدوارها الاجتماعية المتعددة، ودورها التاريخي في مواجهة الاستعمار وطرده الغزاة. وفي العهد العثماني قامت الحياة العلمية والثقافية على مؤسسات دينية أدت دورها التربوي والتعليمي، وكانت الزوايا أهم مؤسسة إضافة إلى المساجد والمدارس القرآنية والعلمية. لقد كانت المهمة الأساسية التي نهضت بها الزوايا المنتشرة في ربوع هذا الوطن هو العمل في عمق المجتمع على المحافظة على كتاب الله والاهتمام أولا بالقرآن الكريم تحفيظا وتعلما وتلاوة باعتباره المصدر الأول لهذا الدين والمصدر الأول للغة العربية، وبمحافظة الأمة على كتاب ربها حافظت على دينها ولغتها وثوابت هويتها. وكان الفضل في ذلك إلى رجال وشيوخ أجلاء نذروا حياتهم وأفنوا أعمارهم ورابطوا على هذا الثغر الحساس خدمة لكتاب الله وخدمة لدينهم ووطنهم. كما أدت الزوايا دورها أيضا في العهد العثماني في نشر العلوم والمعارف، باعتبارها مؤسسات أهلية كانت بمثابة معاهد عليا لتدريس مختلف علوم الدين، فالحواضر العلمية كانت بها زوايا درس بها وتخرج منها الفطاحل من العلماء والأولياء والصالحين، كمدينة الجزائر وحواضر تلمسان وقسنطينة وبجاية ومنطقة القبائل التي انتشرت بها الطريقة الرحمانية التي قادت بعد ذلك كافة المقاومات الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي بمنطقة القبائل. إضافة إلى دورها العلمي والثقافي وحفظ مقومات الهوية الوطنية، كان للزوايا أيضا دورها التاريخي في الدفاع عن بيضة الإسلام وحياض الوطن حين تهدده الأعداء واحتله الغزاة.

الكلمات المفتاحية: الزوايا، الفترة العثمانية، المساجد، المعاهد، المدارس.

Abstract:

Since their inception, zawiyas have held a prominent place and played a significant role in Algerian society. Their abundance, widespread presence across cities, villages, mountains, hills, and vast deserts, as well as the strong attachment people have to them and their esteemed leaders, all attest to their importance within the community. Zawiyas have been, and continue to be, centers of spiritual, educational, and scientific influence. They played a crucial role in preserving the fundamental components of Algerian identity, in addition to their various social functions and their historical role in resisting colonization and repelling invaders.

During the Ottoman era, scientific and cultural life was largely built upon religious institutions that fulfilled educational and instructional roles. Among these, zawiyas stood out as the most important institutions, alongside mosques and Qur'anic and scientific schools. The primary mission of zawiyas, scattered throughout Algeria, was to preserve the Quran, focusing on its memorization, teaching, and recitation as the foundational source of Islam and the Arabic language. By safeguarding the Quran, the Algerian nation also preserved its religion, language, and core identity.

This accomplishment was due to the dedication of esteemed scholars and leaders who devoted their lives to this noble purpose, committing themselves to serve the Quran, Islam, and their homeland. Additionally, during the Ottoman period, zawiyas served as centers for the dissemination of knowledge, functioning as higher institutions for religious education. Major cultural centers were home to zawiyas that educated distinguished scholars, saints, and pious individuals, especially in cities like Algiers, Tlemcen, Constantine, Bejaia, and the Kabyle region, where the Rahmaniyya Sufi order was widespread. This order later led popular resistance movements against French colonialism in the Kabyle area.

Beyond their scientific and cultural contributions and preservation of national identity, zawiyas also played a historical role in defending the sanctity of Islam and the homeland whenever threatened by enemies or foreign occupiers.

Keyword: Zawiyas, The Ottoman Period, Mosques, Schools.

● مقدمة

لقد احتلت الزوايا منذ نشأتها مكانة هامة وأدت دورا بارزا في حياة المجتمع الجزائري، وما كثرها وامتدادها وانتشارها في المدن والقرى والأرياف، في الجبال والتلال والصحاري الواسعة، وإقبال الناس عليها والتفافهم حول مشايخها، إلا دليل على مكانتها في المجتمع، فقد كانت الزوايا ولا زالت مراكز إشعاع روحي وتربوي وعلمي، وكانت صاحبة الفضل في المحافظة على المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية، إضافة إلى أدوارها الاجتماعية المتعددة، ودورها التاريخي في مواجهة الاستعمار وطردهم الغزاة.

وفي العهد العثماني قامت الحياة العلمية والثقافية على مؤسسات دينية أدت دورها التربوي والتعليمي، وكانت الزوايا أهم مؤسسة إضافة إلى المساجد والمدارس القرآنية والعلمية.

1. اهتمام الزوايا بالقرآن الكريم والمحافظة على الهوية الوطنية :

انطلقت الزوايا في القيام بمهمتها العلمية والتربوية بدءا باهتمامها بالقرآن الكريم تحفيظا وتعلما وتلاوة. هذا الدور القاعدي الحيوي والجوهري الذي قامت به الزوايا، والذي قد يغفل عنه الدارسون عادة ولا يولونه الاهتمام اللازم، يصرفون عنايتهم -وهم يتناولون دور الزوايا العلمي- إلى نشاطها في مجال تدريس العلوم المختلفة، باعتبارها معاهد علمية عليا تقدم مستويات عالية من التعليم، لإعداد العلماء المؤهلين للفتوى والتدريس والتأليف.

ولتوضيح هذه الفكرة من المفيد أن نطرح سؤالاً جوهرياً: ما الذي حفظ للجزائر دينها ولغتها وهويتها العربية الإسلامية طيلة 132 سنة من الاستعمار الفرنسي؟

إنه استعمار استيطاني صليبي كان هدفه الأساس طمس هوية هذا الشعب ومحو معالم شخصيته. لم يكن جيش الغزاة مكوناً من القوة العسكرية فحسب، بل كان مدعماً بحملة تبشيرية تنصيرية يقودها قساوسة¹، واستمرت بعد ذلك مع الكاردينال لافيغري وأمثاله، والجمعيات التي أسست لهذا الغرض ومنها جمعيات الآباء البيض والأخوات البيضاء، وذلك بهدف جعل الجزائر قطعة من فرنسا واستعادة مجد روما الضائع، وتحويل الجزائر بذلك إلى بوابة لتنصير إفريقيا.

لقد حاربت فرنسا الإسلام في الجزائر، وحاربت اللغة العربية. لم تكن فرنسا تبني المساجد، بل كانت تهدمها وحولت الكثير منها إلى كنائس² ولم تكن تُعِدُّ الأئمة والعلماء، بل على العكس من ذلك كانت تحول بينهم وبين أداء دورهم ورسالتهم السامية في المجتمع بشق أساليب التضييق والسجن والتهجير

1 لقد اصطحب معه الجنرال دي بورمون قائد الحملة الفرنسية على الجزائر ستة عشر قسيساً رافقوا الجيش الفرنسي، وعندما سقطت الجزائر صرح دي بورمون لهؤلاء القساوسة: "إنكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا" انظر التميمي، ع.ج. (1974 جانفي). التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن التاسع عشر، مجلة التاريخية المغربية، ص 14.

2 مثال جامع كشاوة الذي حوله الاستعمار إلى كاتدرائية، حيث قام الجنرال روفيجو القائد الأعلى للقوات الفرنسية بإخراج آلاف المصاحف الموجودة فيه إلى الساحة المجاورة ومزقها وأحرقها أمام الملاء، مما دفع أربعة آلاف مواطن إلى الاعتصام داخل المسجد استجابة لمفتي الجامع مصطفى الكبابي الذي نادى المواطنين في إحدى خطبه ليهبوا للدفاع عن جامعهم فهاجم جيش المستعمر المعتصمين وقتل أربعة آلاف مصلى، واستمرت المذبحة طول نهار 18 ديسمبر 1832 م، واستغرقت عملية نقل الجثث وتنظيف الجامع وما جاوره عدة أيام متتالية. انظر: بوسوبل ل. (2024 مارس)، جامع كشاوة بمدينة الجزائر قبل تحويله إلى كاتدرائية (1793 م - 1830 م/1832م)، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، ص 748.

والنفي والتنكيل والتعذيب والتقتيل¹ ...، أساليب واجهت بها فرنسا كل من يقف عائقا في وجهها لتحقيق مشروعها الاستيطاني التنصيري في الجزائر. والتعذيب والتقتيل ...، أساليب واجهت بها فرنسا كل من يقف عائقا في وجهها لتحقيق مشروعها الاستيطاني التنصيري في الجزائر.

لو تعرضت أمة لما تعرضت له الجزائر طيلة ما يزيد عن قرن وثلث قرن من أشكال الإبادة وألوان القهر والتقتيل ... لمحت شخصيتها من الوجود ولأذيت وأيدت كما أيدت أمم وشعوب وثقافات في أمريكا وغيرها. لكن الجزائريين رغم ذلك كله حافظوا على هويتهم وشخصيتهم ودينهم ولغتهم، بفضل هذه الزوايا والمؤسسات الدينية الأهلية التي كانت قلعا صامدة في وجه المشروع الاستعماري.

لقد كانت المهمة الأساس التي نهضت بها الزوايا المنتشرة في ربوع هذا الوطن في المدن والقرى والمداش والأرياف، هو العمل في عمق المجتمع على المحافظة على كتاب الله باعتباره المصدر الأول لهذا الدين والمصدر الأول للغة العربية، وتعميم تحفيظه للناشئة مع الحرص على جودة وإتقان الحفظ مع الضبط والرسم²، حتى صار حفظ القرآن وضبطه سمة بارزة امتاز بها أهل هذا البلد، وهو أمر لا ينكره إلا جاحد أو مكابر.

ولم تقف الزوايا عند هذا الحد، بل امتد عملها في عمق المجتمع إلى خلق بيئة اجتماعية انتشرت فيها قراءة القرآن وعممت فيها تلاوته، فكانت سنة القراءة الجماعية وتعميمها كظاهرة دينية تربوية واجتماعية سادت مختلف مناحي الحياة، فكانت المساجد تصدح بتلاوة القرآن الكريم وحلقات الحزب الراتب، تقام يوميا عقب الصلوات، يتحلق فيها أهل القرآن حول محراب المسجد، وكانت المجالس تعطر بتلاوة كلام الله، فالجزائريون يقرؤون القرآن فرادى وجماعات في مساجدهم وفي بيوتهم، وفي مجالسهم، ومناسباتهم العائلية، وفي أفراحهم وفي أقراحهم، يقرؤونه وهم في طرقهم غادون أو رائحون، يقرؤونه وهم في حقولهم يحراثون أو يزرعون ... حتى أضفى نور القرآن وكلمات الله تسري في أرواحهم وتجري مجرى الدم في عروقهم، فانطبعت شخصيتهم بطابع القرآن، وصبغت ملامح مجتمعهم بصبغة القرآن، ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمِنْ أَحْسَنُ مِرْأَى اللَّهِ

1 لعل خير مثال على ذلك الجريمة الشنعاء التي ارتكبتها جيش الاستعمار في حق الإمام الشهيد الشيخ الجيلالي بن عصمان الملقب (سي جلول) إمام الجامع الكبير بتلمسان بما لهذا الجامع من رمزية تاريخية، حيث اقتحم جنود المستعمر حرمة المسجد بأسلحتهم وأطلقوا الرصاص على الإمام فسقط شهيدا داخل المسجد يوم 04 جوان 1957 على الساعة 18 سا و20 د، وقد توقفت ساعة المسجد في هذا التوقيت بالذات، وما زالت إلى الآن معلقة داخل المسجد متوقفة عند ذلك التوقيت شاهدة تروي للأجيال بشاعة المستعمر الفرنسي الغاشم.

2 ولا بأس ونحن بمحاضرة الشلف أن نذكر الحافظ أبا عبد الله التنسي التلمساني المولود بمحاضرة تنس حوالي 820 هـ / 1417م، صاحب "الطراز في شرح ضبط الخراز" والذي يعتبر من أشهر المؤلفات في ضبط الرسم القرآني، ولا يزال عليه الاعتماد في ضبط المصاحف شرقا وغربا.

صَبَّغَةَ البقرة 138، وبذلك حافظت الأمة على هذا النور الإلهي والسر الرباني، وبمحافظة الأمة على كتاب ربها حافظت على دينها ولغتها وثوابت هويتها.

لقد قامت الزوايا والمدارس القرآنية بهذا الدور الأساس والجوهري على مر التاريخ طيلة وجودها ، وقد برزت أهمية هذا الدور وتجلت آثاره بوضوح خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر ، بفضل رجال وشيوخ أجلاء نذروا حياتهم وأفنوا أعمارهم ورابطوا على هذا الثغر الحساس خدمة لكتاب الله وخدمة لدينهم ووطنهم ، هذا الدور الذي ينبغي للزوايا والمدارس القرآنية أن تواصل أدائه في كل وقت وحين ، خاصة في هذا العصر الذي نواجه فيه أجيالا من الحروب الجديدة المتجددة، لا بد للزوايا أن تشكل الجدار المنيع والحصن الحصين للدفاع عن الثوابت الوطنية والمحافظة على الهوية الوطنية.

2. الدور العلمي للزوايا في العهد العثماني :

إذا انتقلنا للحديث عن جهود الزوايا في العهد العثماني في نشر العلوم والمعارف ، باعتبارها مؤسسات أهلية كانت بمثابة معاهد عليا لتدريس مختلف علوم الدين ، فإننا نقف على حواضر علمية كانت بها زوايا درس بها وتخرج منها الفطاحل من العلماء والأولياء والصالحين ، وقد ألفت كتب للتراجم خصصها أصحابها لعلماء وصلحاء مدينة واحدة وحاضرة من الحواضر ، فألف ابن مريم عن علماء وأولياء تلمسان كتابه " البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان " ¹ ، وألف الإمام أبو العباس أحمد الغبريني " عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية " ² ، كما ألف العلامة أحمد بن قاسم البوني ألفيته الصغرى " الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة " ³ ، وكتب العلامة عبد الكريم الفكون " منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية " ⁴ ترجم فيه علماء الشرق الجزائري خصوصا من كان منهم بقسنطينة وعنابة، وعرف الورتلاني في رحلته المعروفة ب " الرحلة الورتلانية " ⁵ بعدد من العلماء والأولياء، وذكر زواياهم ومقاماتهم وكراماتهم..

1 نشره أول مرة الشيخ د. محمد بن أبي شنب سنة 1908م بالمطبعة الثعالبية، ثم أعاد نشره د. عبد الرحمن طالب سنة 1986م ديوان المطبوعات الجامعية، ثم قام بتحقيقه د. عبد القادر بوياية من جامعة وهران وطبعته دار الكتب العلمية - بيروت - سنة 2014 م.

2 الغبريني، 1979.

3 البوني، 2007.

4 الفكون، 1987.

5 الورتلاني، 2008.

1.2 مدينة الجزائر:

مدينة الجزائر وهي عاصمة الدولة في العهد العثماني كانت تعج بالزوايا المنتشرة في جنباتها، وأبرزها زاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي¹، وزاوية القشاش التي كانت تابعة لمسجد القشاش الذي كان يسمى الجامع القديم، وكانت مدرسة عليا للعلوم أشاد بها العلامة أبو راس الناصري². كما برزت في الجزائر زاوية الشيخ سعيد قدورة، وكانت تابعة للجامع الكبير، وكان لها إسهامها الكبير في ميدان التعليم والتدريس، وشيخها سعيد قدورة المعروف عند عامة سكان الجزائر بالعلم والصلاح.

ويعتبر المؤسس لأسرة علمية عريقة تولى أفرادها الإفتاء المالكي بالجامع الكبير أكثر من قرن دون انقطاع، حيث تولى هذا المنصب الشيخ سعيد قدورة قرابة الأربعين سنة من 1028 هـ إلى وفاته سنة 1066 هـ، ليخلفه في هذا المنصب أبناؤه وأحفاده وأقاربه.

وقد بلغ الشيخ سعيد قدورة مكانة علمية عند سكان الجزائر وعلمائها وحكامها، حتى كان باشوات الجزائر يقفون له إجلالا، ويقبلون يده ويقدمونه على المفقي الحنفي الذي كان يمثل المذهب الرسمي الحاكم³. وقد تخرج من زاوية الشيخ سعيد قدورة وتتلذذ على يديه علماء جهابذة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الإمام عيسى الثعالبي المتوفى سنة 1080 هـ، وهو من نسل الإمام سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وقد وصفه أهل التراجم بأنه " كان مسند الدنيا في وقته"⁴.

وممن تتلمذ على الشيخ سعيد قدورة بهذه الزاوية العلامة يحيى بن محمد الشاوي الملياني المتوفى سنة 1096 هـ، وقد رحل إلى المشرق وطاف البلاد الإسلامية مصر والشام والحجاز وغيرها، وتولى إفتاء المالكية بمصر، وجلس للتدريس بالأزهر، وكان له بالجامع الأموي بدمشق مجلس علمي مهيب يحضره علماء دمشق، كما كان يحضر أيضا المجالس العلمية التي يقيمها السلطان العثماني بالأستانة (اسطنبول)⁵.

2.2 حاضرة تلمسان :

اشتهرت حاضرة تلمسان ونواحيها بزواياها ومشاهدها، نذكر منها زاوية سيدي أبي مدين وزاوية الشيخ محمد السنوسي وزاوية سيدي الحلوي وزاوية عين الحوت وغيرها⁶.

6 سعد الله، 2011، ج 1، ص 263.

2 سعد الله، 2011، ج 1، ص 253.

3 سعد الله، 2011، ج 1، ص 357، 367.

4 سعد الله، 2011، ج 2، ص 52 - 60.

5 سعد الله، 2011، ج 2 - ص 102 - 111.

6 سعد الله، 2011، ج 1 - ص 265.

وقد دخل العهد العثماني على تلمسان وقد ورثت من العهد الزياني رصيда علميا زاخرا، بفضل المدارس التي أنشأها السلاطين أيام الدولة الزيانية (مدرسة ابني الإمام - المدرسة التاشفينية - المدرسة الخلدونية أو مدرسة سيدي أبي مدين بالعباد - المدرسة اليعقوبية ومدرسة سيدي الحلوي ... وغيرها)¹. وقد استمر الأثر العلمي لهذه المدارس في العهد العثماني، بحيث توارثت العلم أسروبيوتات علمية عريقة توارث أبنائها العلم كبرا عن كابر، كعائلة الونشريسي والمرازقة والمقري والعقباني ... ومن عائلة المقري نجد علما من أعلامها هو سعيد المقري المولود بتلمسان حوالي 928 هـ، أي عشية سقوط الدولة الزيانية وبداية الحكم العثماني بتلمسان. كان أبو سعيد المقري مدرسا بالجامع الكبير ومفتيا بتلمسان لأكثر من خمسة وأربعين سنة، كان عالما موسوعيا، عالما بالمعقول والمنقول، لبس خرقة التصوف ودرس علم التصوف، له ولع يعلم الطب والجراحة وغيرها من العلوم العقلية. من تلامذته بتلمسان الشيخ سعيد قدورة الذي سبقت الإشارة إليه.

وكذا ابن أخيه العلامة أحمد المقري صاحب نفح الطيب ، الذي بلغت شهرته الآفاق² ، وقد انبر أهل المشرق بعلمه ، فتصدر لتدريس صحيح البخاري بالجامع الأزهر ، كما وفد على المدينة المنورة سبع مرات وأملى الحديث النبوي عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأملى أيضا صحيح البخاري بالجامع الأموي بدمشق أثناء درس كان يلقيه بعد صلاة الصبح يحضره أعيان دمشق وعلمائها وطلبتها ، ولما كثرت الناس حوله خرج إلى صحن الجامع ، ويوم ختمه للبخاري اجتمع إليه الألوف من الناس ، واستمر المجلس من طلوع الشمس إلى أن قرب الظهر ، ولما ختم ونزل عن كرسيه ازدحم الناس يقبلون يده ، ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين إلى دمشق ما اتفق له من الحظوة وإقبال الناس³.

3.2 مدينة قسنطينة :

وفي مدينة قسنطينة ونواحيها قائمة أخرى من الزوايا القائمة بدورها التعليمي والتربوي ومنها زوايا: الكتاني، سيدي المناطق، سيدي مخلوف ، سيدي راشد وغيرها⁴. وكانت للعائلات العلمية بالمدينة زواياها ومنها زاوية أولاد الفكون، وهي أسرة علمية شهيرة توارث أفرادها العلم بقسنطينة قرونا، ومنهم الإمام عبد الكريم بن يحيى الفكون (الجد) المتوفى سنة 988 هـ، وهي سنة ميلاد حفيده العلامة عبد الكريم بن الفكون القسنطيني (988 هـ - 1073 هـ) ذكره أحمد المقري صاحب

1 حساني، 2009، ج 2، ص 275 - 277، فيلاي، 2002، ص 141-145، مشنان م. 2003 جويلية المؤسسات العلمية والثقافية في تلمسان الزيانية - مجلة رسالة المسجد، ص 56 - 62.

2 سعد الله، 2011، ج 1، ص 376 - 379.

3 سعد الله، 2011، ج 2، ص 212 - 223.

4 سعد الله، 2011، ج 1، ص 264.

"نفع الطيب" فقال: "عالم قسنطينة وصالحها، وكبيرها ومفتيها، سلالة العلماء الأكابر، ووارث المجد كبرا عن كابر، المؤلف العلامة الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله". وعرفت كتابه "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" استعرض فيه حوادث هامة عن الحياة الثقافية إثر دخول العثمانيين مدينة قسنطينة¹.

واشتهرت أيضا من الأسر العلمية بقسنطينة أسرة الكماد، ومن أشهر من برز من علماء هذه الأسرة العريقة في القرن العاشر الهجري بقسنطينة العالم العارف عمر بن محمد الكماد الأنصاري القسنطيني المشهور بعمر الوزان، وكان قمة في علوم العقل والنقل، من الصالحين الذين عرفوا بالزهد والورع، ترجم له العلامة عبد الكريم بن الفكون، وافتتح بترجمته كتابه "منشور الهداية" وقال عنه: "شيخ الزمان وياقوتة العصر والأوان العالم العارف بالله الرباني ... كان بحرا لا يجارى في العلوم فقها وأصولا ونحوا وحديثا، وله في طريق القوم اليد الطولى".²

قضى حياته وأقى عمره في التدريس، من تلامذته عبد الكريم الفكون الجد ويحيى بن عمر الزواوي شيخ أحمد المنجور المغربي صاحب (الفهرسة)، ومن تلامذته أيضا العلامة عبد الرحمن الأخضرى صاحب المنظومات الشهيرة في مختلف الفنون، كالجوهر المكنون في علوم البلاغة والسلم في علم المنطق³، اعتنى بهذه المنظومات كبار العلماء خلفا عن سلف، فتناولوها بالشروح ووضعوا عليها الحواشي، واعتمدت للتدريس في مختلف المدارس والمعاهد العلمية العريقة كالزهر والزيتونة وغيرها، وما زالت إلى يوم الناس هذا.

4.2 مدينة عنابة (بونة):

وبالقرب من قسنطينة كانت عنابة، وبها عائلة البوني، قد التي جمعت بين العلم والصالح، وسيطرت روحيا على عنابة وضواحيها مدة طويلة جاوزت القرنين، واشتهر من علماء هذه الأسرة العريقة العلامة أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني (1063هـ-1139هـ)⁴.

5.2 حاضرة بجاية وزواوة:

تعتبر هذه المنطقة من أغنى مناطق الجزائر بالزوايا، ومن أشهرها زاوية تيزي راشد (وتسمى أيضا زاوية ابن أعراب) التي كان يقصدها الطلبة من النواحي القريبة والبعيدة، وزاوية الشيخ محمد التواتي ببجاية

4 البوعبدلي، 2013، ص 108.

2 الفكون، 1987، ص 35.

3 سعد الله، 2011، ج 1، ص 379 - 384.

4 انظر ترجمته: سعد الله، 2011، ج 2، ص 60 - 64.

والتي أخرجت أجيالا من المتعلمين، كما اشتهرت بالتعليم والتدريس أيضا زاوية الأزهرى بآيت اسماعيل وزاوية سيدي عبد الرحمن البيلوي وغيرها.¹

وللطريقة الرحمانية الخلوتية دورها التاريخي بمنطقة القبائل، أدخلها إلى جرجرة الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري المولود سنة 1126 هـ بقرية آيت اسماعيل بجرجرة، بدأ تعليمه بزاوية الشيخ أوعراب بني يراتن، ليوصل تعليمه بمدينة الجزائر، ثم يلتحق بالجامع الأزهر فيأخذ عن شيوخها وعلمائها، ومن أبرزهم شيخ الأزهر الشيخ محمد بن سالم الحنفي وكان يرأس الطريقة الخلوتية، فأخذ عنه الطريقة، وأدخلها إلى منطقة القبائل لما عاد واستقر بمسقط رأسه بقرية آيت اسماعيل، فالتف حوله كثير من طلبة العلم والعلماء وشيوخ الزوايا، فكانت زاويته منبع إشعاع علمي وروحي.

وانتشرت الطريقة الرحمانية وعمت بلاد القبائل وامتدت إلى مناطق الجنوب، وانتسب إليها كثير من زوايا ومعاهد العلم كزوايا نفطة وطولقة واولاد جلال والهامل ...، وتخرج من هذه المعاهد علماء أجلاء داخل الوطن وخارجه، أشهرهم الشيخ عبد الرحمن الديسي، والشيخ المكي بن عزوز مفتي الأستانة (اسطنبول) والشيخ الخضري بن الحسين الذي تولى مشيخة الأزهر خمسينيات القرن الماضي.²

3. الزوايا جمعت بين الدور العلمي والجهادي:

إضافة إلى دورها العلمي والثقافي وحفظ مقومات الهوية الوطنية، كانت الزوايا في الموعد وتحملت مسؤولياتها في الدفاع عن بيضة الإسلام وحياض الوطن حين تهدده الأعداء واحتله الغزاة. وإذا كنا قد تناولنا قبل قليل دور الطريقة الرحمانية ببلاد القبائل، فلا بد أن نذكر دورها التاريخي في مواجهة الاستعمار، وقد كانت المحرك الرئيس للثورات الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي، فالشريف بوبغلة قائد ثورة القبائل الأولى سنة 1851 م من تلاميذ الشيخ المهدي السكلاوي شيخ الطريقة الرحمانية في عهده، ولالا فاطمة نسومر من تلاميذ هذا الشيخ أيضا. والذي تولى رئاسة الطريقة الرحمانية بعد الشيخ المهدي السكلاوي تلميذه الشيخ محمد أمزيان بن الحداد بطل ثورة القبائل الأخيرة سنة 1871 م.³

وقبل ذلك في العهد العثماني أنشأ شيوخ الزوايا الرباطات التي تركزت قرب السواحل التي نزل فيها الغزاة خاصة منهم الإسبان، فكانت الزوايا والرباطات تؤدي دورها العلمي والتربوي، وتقوم أيضا بمهمة الجهاد والذود عن حياض الوطن، فكان الطلبة وشيوخهم جنودا وعلماء في نفس الوقت. لما استولى الإسبان على سواحل وهران كان للرباطات التي تشكلت في الأساس من طلبة الزوايا وشيوخهم دور كبير في فتح وهران الأول سنة 1119 هـ، واشتهر من علماء رباطات الفتح الأول الشيخ العلامة مصطفى

1 سعد الله، 2011، ج 1 - ص 265 - 266

2 البوعبدلي، 2013، ص 31 - 34.

3 البوعبدلي، 2013، ص 34 وما بعدها، بوعزيز، 2009، ص 105 وما بعدها - ص 249 وما بعدها.

الرماسي عالم مازونة وصاحب الحاشية الشهيرة على شرح التتائي على مختصر خليل، والتي غدت بفضل ما اتسمت به من دقة علمية وتحرير للمسائل مصدرا معتمدا لدى المتأخرين يرجعون إليها في تحرير مسائل المذهب ومعرفة الأقوال المشهورة والمعتمدة.

وشارك أيضا في هذا الفتح من العلماء إمام الراشدية الشيخ عبد القادر المشرفي المتوفى سنة 1192 هـ، وهو والد العالم القاضي الطاهر المشرفي وجد ابن عبد الله المشرفي الحافظ الذي تولى الخلافة والقضاء في عهد الأمير عبد القادر.

ومما يبين المكانة العلمية التي كانت للشيخ عبد القادر المشرفي أن الشيخ مصطفى بن مختار الراشدي جد الأمير عبد القادر لما أسس معبده بالقيطنة بمعسكر اختاره للتدريس، وبهذا المعهد تتلمذ عليه العلامة أبو راس الناصري الذي وصف شيخه بقوله: "شيخنا الأكمل وأستاذنا الأمل، خاتمة أهل التحقيق وعمدة أهل التوفيق الشيخ سيدي عبد القادر بن عبد الله المشرفي شرف الله في الجنان مكانه".¹

كما اشتهر من علماء الرباطات في الفتح الثاني لوهـران سنة 1205 هـ الشيخ محمد بن عبد الله الجلاي (أبو جلال)، وهو من أكابر علماء البلاد، وقد اختاره الباي محمد بن عثمان الكبير لرئاسة مدرسته المحمدية التي بناها بمعسكر، وحين عزم على غزو وهران وطرد الإسبان عين هذا الشيخ رئيسا للرباط.² كما بعث إلى الشيخ العلامة أبي طالب محمد بن علي بن الشارف المازوني للمشاركة في الرباط، فحضر ومعه ولداه -وقد استشهد أحدهما في هذا الفتح- ومائتا طالب، وكان عمره يجاوز الثمانين سنة، وقد ذهب من مازونة إلى وهران مروراً بمعسكر ماشياً وامتنع من الركوب تاركا راحلته للمرضى من طلبته.³

والعلامة محمد بن الشارف علم من أعلام مدرسة مازونة، قال عنه تلميذه ابن سحنون الراشدي: "ثم بعث الأمير إلى ولي الأمة الشهير، وشمس علمائها الذي نادى بفضله على منار المجد أسمع جهير، مفني عمره في خدمة العلم وطلبته على مر الأيام واستمرارها، المفيض على تلامذته أصفى بركاته وأشهى مدرارها، شيخنا السيد محمد بن علي بن الشارف المازوني أفاء الله علينا من ظلال بركته الوارف، وكان مطاعاً عند الطلبة مهابة بينهم، ما أمر بشيء إلا امتثلوه، ولا نهي عن غيره إلا تجنبوه".⁴

وقد استشهد في هذا الفتح العديد من الطلبة، فأمر الباي محمد بن عثمان الكبير بتأسيس مقبرة ضمت رفاة هؤلاء الطلبة الشهداء ودفنوا في مكان استشهداهم اقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم في

1 انظر مقدمة الشيخ المهدي البوعبدلي لكتاب الراشدي، 2013، ص 37.

2 المرجع نفسه - ص 64 - 65.

3 المرجع نفسه - ص 82.

4 الراشدي، 2013، ص 241 - 242.

شهداء أحد، حيث دفنوا في مكان استشهادهم ولم تنقل رفاتهم إلى المدينة. وما زالت مقبرة الطلبة شهداء فتح سواحل وهران وتحريرها من الإسبان شاهدة على دور الزوايا التاريخي في محاربة الاستعمار والدفاع عن الدين والوطن، وشاهدة على الدور الريادي لهذه الفئة (الطلبة) في القضايا المصرية للأمة.

● خاتمة

لقد أدت الزوايا دورا هاما في الحياة العلمية والثقافية للمجتمع الجزائري في العهد العثماني، وقد كانت المهمة الرئيسية القاعدية التي اضطلعت بها الزوايا خدمتها للقرآن الكريم المصدر الأساسي للدين واللغة العربية، وبذلك حافظت الزوايا على مقومات الهوية الوطنية، وضمنت استمراريتها وتواصلها مع تعاقب الأجيال، فكانت الزوايا القلاع الحصينة للهوية الوطنية عندما تعرضت الجزائر بعد ذلك للاستعمار الفرنسي الاستيطاني الذي استهدف محو معالم الشخصية الجزائرية في أبعادها الدينية واللغوية والثقافية.

كما كان للزوايا دورها العلمي باعتبارها مراكز ومعاهد علمية خرجت الجهابذة من العلماء الذين تبوأوا مكانتهم العلمية في العالم الإسلامي بفضل انتاجهم العلمي ومؤلفاتهم التي كانت ولا يزال الكثير منها مراجع معتمدة للتدريس في مختلف البقاع الإسلامية.

ومع اهتمام الزوايا بالجوانب العلمية والثقافية، فإنها لم تغفل جوانب أخرى حيث تحملت مسؤولياتها في الدفاع عن حمى الوطن حين تهدده الغزاة والمحتلون، فكانت رباطات الجهاد التي قادها العلماء والشيخو بطلبهم على امتداد سواحل البلاد لصد العدوان الصليبي الإسباني والدفاع عن حياض الدين والوطن.

قائمة المصادر والمراجع

1. البوعبدلي -المهدي البوعبدلي: جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني من القرن العاشر الهجري إلى القرن الثالث عشر- ضمن الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي - جمع وإعداد عبد الرحمن دويب - ط 2013 - دار المعرفة الدولية - الجزائر
2. البوعبدلي -المهدي البوعبدلي: الشريف بوبغلة بطل ثورة بلاد القبائل - ضمن الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي - جمع وإعداد عبد الرحمن دويب - ط 2013 - دار المعرفة الدولية - الجزائر
3. بوعزيز- يحيى بوعزيز: ثورات القرن التاسع عشر - ص 105 وما بعدها - ص 249 وما بعدها - ط 2009 - دار البصائر - الجزائر
4. البوني أحمد بن قاسم: الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة - تحقيق أ.د. سعد بوفلاقة - منشورات بونة للبحوث والدراسات - عنابة - الجزائر - ط 1- 1428 هـ / 2007 م.
5. حساني مختار: تاريخ الدولة الزيانية - ط 2009 - منشورات الحضارة - الجزائر
6. الراشدي -ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني - تحقيق الشيخ المهدي البوعبدلي - ضمن الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي - جمع وإعداد عبد الرحمن دويب - ط 2013 - دار المعرفة الدولية - الجزائر
7. سعد الله -أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي - ضمن مجموعة أعمال الدكتور أبو القاسم سعد الله - ط 2011 م - عالم المعرفة - الجزائر
8. الغبريني -أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية - تحقيق عادل نويهمز - دار الآفاق الجديدة - بيروت - لبنان - ط 2 - 1979 م
9. الفكون -عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية - تحقيق د. أبو القاسم سعد الله -دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان - ط 1- 1408 هـ / 1987 م.
10. فيلاي -عبد العزيز فيلاي: تلمسان في العهد الزياني - ط 2002 - المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية - الرغاية - الجزائر
11. ابن مريم المليلي المديوني: البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان -تحقيق د. عبد القادر بوباية - دار الكتب العلمية - بيروت -سنة 2014 م.
12. الورثيلاني -الحسين الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار - المكتبة الثقافية الدينية - القاهرة - ط 1 - 1429 هـ/ 2008 م .

● المجالات:

1. بوسوبل ليلي: جامع كتشاوة بمدينة الجزائر قبل تحويله إلى كاتدرائية (1793 م - 1830م/1832م) - مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية - المجلد التاسع - العدد الرابع والأربعون - مارس 2024
2. التميمي عبد الجليل: التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن التاسع عشر - المجلة التاريخية المغربية - العدد 1 - جانفي 1974 - تونس
3. مشنان محمد: المؤسسات العلمية والثقافية في تلمسان الزبانية - مجلة رسالة المسجد - العدد صفر جمادى الأولى 1424 هـ - يوليو 2003.